خطابِ الدّفاعِ الكفائيّ لآية الله العظمى السيّد عليّ السيستانيّ

مقاربة في ضوء اللسانيّات الاجتماعيّة

The Discourse of Sufficient Defense by Grand Ayatollah Sayyid Ali al-Sistani: An Approach in Light of Sociolinguistics

م. د حسن سوادي طعمة

Inst. Dr Hassan Sawady

جامعة واسط/ كلية التربية الأساسية

University of Wasit / College of Basic Education

hsawady@uowasit.edu.iq

م. د. هاني كنهر عبد زيد العتّابيّ

Inst. Dr Hani Kenher AL-Attabi

المديريّة العامّة لتربية محافظة واسط

Governorate General Directorate of Education, Wasit

kenher@alkutcollege.ed Hani

الكلمات المفتاحيّة: (اللسانيات الاجتماعية، خطاب السيستاني، الدفاع الكفائيّ، القوّة الخطابيّة، التضامن، التوجيه)

Keywords: (Sociolinguistics, Sistani's discourse, sufficient defense, rhetorical power, solidarity, guidance)

الملخّص

يهدف هذا البحث إلى تقديم قراءة لسانيّة اجتماعيّة جديدة لخطبة الدفاع الكفائيّ لآية الله العظمى السيّد عليّ السيستانيّ، بوصفها ظاهرة لسانيّة فريدة حقّقت فعلا خطابيّا إنجازيّا تأثيريّا من جهة، وقوّة اجتماعيّة مؤثّرة من جهة أخرى، وهو يقدّم مقاربة تقوم على التكامل أو التعاضد بين المقاربات اللسانيّة التي عنيت بالعلاقة بين العلامات اللسانيّة ومستعمليها، والمقاربات اللسانيّة التي عنيت بالعلاقة بين الخطيب والمجتمع، فيعمل على استنطاق البنيّة اللسانيّة للخطاب، موضّحا العلاقة بين العلامات اللسانيّة فيه، ويشتغل بعد ذلك على تبيان أثر العلاقة بين الخطيب والمخاطبين، وما آلت إليه في صناعة قوّة خطابيّة مؤثّرة، وهو في كلّ ذلك يبنى على منهجيّة تستثمر الأدوات اللسانيّة في مسارها البنيويّ وتوظّفها في المسار اللسانيّ الاجتماعيّ.

Abstract

This research aims to present a new sociolinguistic reading of the "Defense of Sufficiency" sermon by Grand Ayatollah Sayyid Ali al-Sistani, as a unique linguistic phenomenon that has achieved an effective rhetorical effect on the one hand, and an influential social force on the other. It presents an approach based on integration or synergy between linguistic approaches that dealt with the relationship between linguistic signs and their users, and linguistic approaches that dealt with the relationship between the speaker and society. It works to elicit the linguistic structure of the discourse, clarifying the relationship between the linguistic signs in it, and then works to show the effect of the relationship between the speaker and the addressees, and what it led to in creating an influential rhetorical force. In all of this, it is based on a methodology that invests linguistic tools in their structural path and employs them in the sociolinguistic path.

المقدّمة

يعدّ خطابُ الدفاعِ الكفائيّ للمرجعيّةِ الدينيّةِ في النجفِ الأشرفِ* في (الرابع عشر من شهر شعبان، سنة خمسة وثلاثين وأربعمائة وألف للهجرة) من أبرز الخطابات الدينيّة في القرن الحادي والعشرين، وقد حظي بمنزلة لا تضاهيه فيها الخطاباتُ السياسيّةُ والدينيّةُ الأخرى؛ لسببٍ واضحٍ، وهو أنَّ هذا الخطابَ عملَ على رصدِ الآفاتِ التي يعاني منها المجتمعُ، وسعى إلى معالجتها، ثمَّ اشتغلَ على تعزيزِ الوحدةِ الوطنيّةِ، وإحياءِ أثرِ المؤسّسةِ الدينيّةِ في انتشالِ العراقِ والعراقيّينَ من الضياع، وزرعِ روحِ التنافسِ في نفوسِ أفرادِ المجتمعِ العراقيّ؛ فوضعَهم جميعًا على عتبةِ المسؤوليّةِ، وأوكلَ إليهم مسؤوليّاتِهم بوصفِها تحدّيًا لقدرتِهم وإيمانِهم وشجاعتِهم وصبرِهم وثباتِهم.

ولأنَّ أيَّ خطابٍ سياسيّ ينطلقُ من قضيّةٍ كبرى ويرتبطُ بها، يغيّرُ الأزماتِ، ويخفّفُ وطأةَ الشدائدُ، ويعبّئُ الطاقاتِ، ويبيدُ المآزقَ، ويفتحُ البابَ واسعًا لتحقيقِ الغاياتِ الساميةِ، فإنَّ خطابَ الدفاعِ الكفائيّ اشتغلَ على ثلاثةِ محاورَ مترابطةٍ، وهي الإيمانُ بقدرةِ أفرادِ الشعبِ العراقيّ على إحقاقِ الحقّ، والسعي إلى صناعةِ قوّةٍ شعبيّةٍ واحدةٍ، ونشدانُ النصر، وهذه المحاورُ تتعدّى حدودَ الشعاراتِ التي أُفرِطَ في تداولِها حتّى آلتْ إلى عمليّاتِ تغطيةٍ وتمويه، إلى مرحلةٍ جديدةٍ تُسمّي الأشياءَ بمسمّياتِها، حتّى تكون شعاراتُها قويّةً وفاعلةً ومؤثّرةً وقادرةً على الإنجازِ والتغيير.

ولمّا كانَ الخطابُ السياسيّ في هذه المرحلةِ خطابًا عشوائيًّا فضفاضًا، غيرَ قادرٍ على التغيير، وعاجزًا عن الصمودِ بوجهِ تحدّياتِ الطائفيّةِ ومضاعفاتِها التي أخذتْ تنمو بانتهازيّةٍ واضحةٍ، شرعَ الخطابُ المرجعيّ السياسيّ بمعالجةِ التصدّعات، واستدراجِ المخاطبينَ إلى التحرّرِ من الأوهامِ، ثمّ الإمساكِ بزمامِ الأمورِ والتمسّكِ بها.

وليس من شأننا هنا أن نحلّلَ مرجعيّات الخطاب، أو نبيّنَ كلَّ ما يحيطُ به، أو نعرضَ لكلِّ المقالاتِ التي تناولتْه تحليلًا وتعليلًا وتأصيلًا وتقويلًا، بل نسعى إلى تحديدِ المسالك التي جعلتْ منه قوّةً خطابيّةً قادرةً على التغييرِ، لذلك تطلّب البحث أن يقع في مقدّمة وتمهيد وستّة مطالب،

*** نعتمد خطاب الدفاع الكفائيّ للمرجعيّة الدينيّة بحسب التسجيل المصوّر، والخطاب المرقوم على موقع مكتب سماحة المرجع الدينيّ الأعلى السيّد عليّ الحسينيّ السيستانيّ (دام ظلّه).**

إذ اختصّ التمهيد بتبيان (المقاربات اللسانيّة الكاشفة عن قوّة الخطاب)، أما المطالب فهي على النحو الآتي:

المطلب الأوّل: خطاب الدفاع الكفائيّ وثنائيّة التّوجيه والتّضامن

المطلب الثاني: خطاب الدفاع الكفائيّ واستثمارُ السرديّاتِ الكُبرى

المطلب الثالث: خطاب الدفاع الكفائيّ ومعالجة الطائفيّة

المطلب الرابع: خطاب الدفاع الكفائيّ وإيطوسُ المرجعيّةِ

المطلب الخامس: خطابُ الدفاعِ الكفائيّ في معيارِ (علينا أن نقول وعليكم أن تتأوّلوا)

المطلب السادس: إنجازيّةُ خطابِ الدفاعِ الكفائيّ

على أنّ مطالب البحث يفضي أحدُها إلى الآخرِ، فيبدأُ الثاني ممّا ينتهي إليه الأوّلُ، وصولًا إلى منجزاتِ خطابِ الدفاعِ الكفائيّ، وقد اتّخذ البحث منهجا وصفيّا قائما على التفسير والتحليل، لغرض الوصول إلى الأهداف الخطابيّة الساميّة.

التمهيد: المقاربات اللسانيّة الكاشفة عن قوّة الخطاب

لعلّ أوّل ما يواجه الباحث في مفتتح تحليل خطبة الدفاع الكفائيّ للمرجعيّة الدينيّة هو أن يحدّد المقاربة اللسانيّة التي يشتغل عليها في التحليل والتأويل، وإذا كانت غاية البحث أن يحدّد العناصر أو الجوانب اللسانيّة وغير اللسانيّة التي جعلت هذه الخطبة قوّة قادرة على التغيير، فينبغي أن يستعين بكلّ المقاربات اللسانيّة التي تعينه على هذا التحديد.

وإذا أردنا أن نمسك الأمر من أوّله ونركّز على المقاربات التي تعنى بالتركيب والعلاقات الشكليّة بين العلامات اللسانيّة، أو علاقة هذه العلامات بالأشياء، فلابدّ أن نستعرض جانبا مهمّا من هذه المقاربات، فنركّز على علاقة العلامات بمؤوّليها (نحلة، 2002م، 9) ، وهذه المقاربة تقودنا إلى أطروحة (أوستنL.J Austin) التي ركّز فيها على العمل اللغويّ أو الفعل الكلاميّ (حيال، 2020م، 139)؛ إذ قرّر أنّ الأقوال التي تصدر عن الخطيب تحقّق أغراضا إنجازيّة، مثل الطلب أو الوعد أو الوعيد أو التنبيه ...، وهي بعد تؤدّي إلى صناعة قوّة تأثيريّة تظهر في سلوك المخاطبين أو في ردود

أفعـالهم (صـحراويّ، 2005م، 40) ، وعلـى وفـق هـذه المقاربـة فـإنّ قـوّة الخطـاب تسـتند إلـى العناصـر اللسـانيّة فيـه بوصـفها أعمـالا لغويّـة، وإنّ الخطـاب عمـل أو هـو "عمـل يتحقّـق ونحـن نقـول شـيئا مـا" (المبخـوت، 2010، 42) وبنـاء علـى كـلّ مـا تقـدّم فـإنّ خطـاب الـدفاع الكفـائيّ فعـل لغـويّ أو عمـل كلامـيّ لـه قـوّة خطابيّـة قـادرة علـى التغييـر والحثّ والاستنهاض وبناء قناعات المخاطبين.

وفي قبال ذلك نرى أنّ ثمّة مقاربة أخرى تنطلق من العناصر اللسانيّة إلى السلطة الرمزيّة، بمعنى أنّ خطاب الدفاع الكفائيّ استمدّ قوّته الإنجازيّة والتأثيريّة من السلطة الرمزيّة للخطيب؛ إذ علّق (بورديـو Pierre Bourdieu) علـى المقاربـة السـابقة بأنّهـا مقاربـة ناقصـة، وأنّ القـوّة الإنجازيّة المؤثّرة تبدأ أوّل ما تبدأ من مكانة الخطيب عند الناس(بيير بورديو، 2023م، 127) ، أيّ أنّ قوّة خطـاب الـدفاع الكفـائيّ تتّصـل بمكانـة الخطيب؛ لأنّ الخطـاب لا يكـون مـؤثّرا إلّا إذا اعترف المخاطبون ضمنيّا بأنّ هذا الخطيب له تفويض بالكلام؛ أيّ أنّ التأثير ناتج عن إحكام الصناعة اللسانيّة التي تشير إلى شرعيّة الخطيب بالكلام(بيير بورديو، 2023م، 127–130)؛ لأنّ "أقصـى مـا تفعلـه اللغـة هـو أنّهـا تمثّـل هـذه السـلطة وتظهرهـا وترمـز إليهـا" (بيير بورديـو، 2007م، 58)

وعلى وفق ما تقدّم كلّه يمكن أن نقرّر أنّ قوّة خطاب الدفاع الكفائي والنجاح الذي حقّقه يستند إلـى أمـرين: الأوّل الصـناعة اللسـانيّة المحكمـة القـادرة علـى الإقنـاع، وهـذا مـا يبنـى علـى مقاربـة (أوستنAustin L.J)، والثاني الرأسمال الرمزيّ للخطيب، والتفويض الاجتماعيّ له بالتكلّم، وهذا ما نفهمه من مقاربة (بورديو Pierre Bourdieu).

المطلب الأوّل: خطاب الدفاع الكفائيّ وثنائيّة التّوجيه والتّضامن

إذا علمنا أنّ مرسل الخطاب لا بدّ له من استعمال مجموعة من الاستراتيجيّات والأدوات الخطابيّة التي تضفي على خطابه البعد التواصليّ فضلًا عن سرعة استجابة المتلقي له، كان لزامًا علينا ونحن نقرأ خطاب المرجعيّة الرشيدة في خطبة الجهاد الكفائيّ أن نتعرف عن الاستراتيجيّات والأدوات التي ارتكز عليه هذا الخطاب، ولعل أول ما يلفت النظر أنّ الخطاب

اعتمد في أوّله على التوجيه الذي يعني رغبة المرسل في تقديم توجيهات ونصائح وأوامر ونواهي يعتقد أنها تصب في مصلحة المرسل إليه على أن ذلك التوجيه يُعدّ فعلا لغويا له وظيفة التعبير عن سلوك المرسل وتأثيره في حركة المرسل إليه وسلوكه (مقبول، 2014، 549)، ومن ذلك استعمال منتج الخطاب والمتمثلة (بسماحة السيد السيستاني) فعل الأمر (اجعل) بصيغة الجمع في قوله: (اجعلوا قصدكم ونيّتكم ودافعكم هو الدفاع عن حرمات العراق ووحدته وحفظ الأمن للمواطنين وصيانة المقدّسات من الهتك ودفع الشرّ عن هذا البلد المظلوم وشعبه الجريح)، إنّ هذه الصيغة وإن كانت تحمل بعدًا توجيهيًّا إلزاميًّا فإنّها في الوقت نفسه تعطي تحفيزًا وحثًّا لأبناء الشعب العراقيّ على الدفاع عن وطنهم ودفع الشرّ والظلم عن بلدهم، فجاء الخطاب يحمل بعدًا توجيهيًّا له دلالة منفعيّة لجميع المدافعين عن الوطن؛ لأن المرجعيّة بيّنت في ذات الوقت جزاء الدفاع عن الوطن، ومنزلة المدافع إذ عبرت عن ذلك (إن من يضّحي بنفسه منكم في سبيل الدفاع عن بلده وأهله وأعراضهم فإنّه يكون شهيداً إن شاء الله تعالى)، إذ بيّنت أن منزلة المدافع عن الوطن هي الشهادة في سبيل الله، وبذلك فقد أعطت قوة واضفت معنًا جديدًا على خطابها التوجيهيّ الذي يراد به حفظ العراق وشعبه، وهذا الاستعمال جاء لحثّ القوات الأمنيّة للدفاع عن الوطن والمقدّسات من داعش الظلام، والحفاظ على حرمة الوطن والشرف والعرض، ويتضح بشكل جلي الأسلوب السلس في استعمال فعل التوجيه الذي عمدت إليه المرجعيّة الدينيّة لدفع الخطاب الى عامة الشعب، وتبرز فعاليّة استعمال فعل التوجيه في الخطاب؛ لأنّه منح المتلقي السهولة الأكبر في معرفة المعنى المقصود من الخطاب.

وقد عمدت المرجعيّة إلى تأكيد التوجيه والإلزام عبر الاستعانة بأسلوب النهي بوصفه آلية توجيهيّة، تدعم به أسلوب الأمر؛ لان هذا الأسلوب يستعمل لتوجيه المتلقي الموجود والغائب وكذلك ويركز استعماله في الخطابات العامة (الشهري، 2004م، 350)؛ لتُحقّق الغاية الأمثل من الخطاب، إذ نجد توظيف أسلوب النهي في خطاب المرجعية عندما اوضحت (أنه لا يجوز للمواطنين الذين عهدنا منهم الصبر والشجاعة والثبات في مثل هذه الظروف أن يدبَ الخوفُ والاحباطُ في نفسِ أيّ واحدٍ منهم، بل لا بد أن يكون ذلك حافزاً لنا للمزيد من العطاء في سبيل حفظ بلدنا ومقدّساتنا)، فقد عمدت المرجعيّة إلى أسلوب النهي عن الخوف والاحباط والتراجع،

ولكن في الوقت نفسه حركت فيهم مشاعر القوة والثبات عبر ذكر صفات أبناء الشعب العراقيّ (الذين عهدنا منهم الصبر والشجاعة والثبات في مثل هذه الظروف)، وحاولت تذكيرهم بأن التجارب السابقة التي مرّت على العراق بينت ثباتهم في المواقف الصعبة؛ لذا دلَّ هذا الاستعمال على توجيه المواطنين إلى الاتزان والصبر والثبات عن طريق استعمال آلية النهي، زيادة على أنّ هذا التوجيه يحمل بعدًا تحفيزيًا هو الدفاع عن وطنهم ومقدّساتهم.

وفي قبال التوجيه، نجد أن المرجعيّة قد استندت إلى استراتيجية التضامن التي تهتم بالجانب التواصليّ بين المرسل والمتلقي، لذلك فهي تعتمد على اللغة للوصول إلى القصد والغاية؛ لذلك فهي تعتمد على اللغة في توطين العلاقات الاجتماعية بين افراد المجتمع (لطفي، 1976م، 59) وتتضح فيها طبيعة العلاقة الاجتماعيّة ودرجتها بينهما، وهذه الجوانب نجدها واضحت في خطبة الجهاد الكفائيّ، إذ عمدت المرجعيّة إلى ذكر (خصائص المرسل اليه) بوصفها آلية تضمن تحقيق الهدف من الخطاب وهو التضامن بين المرجعيّة وأبناء الشعب العراقيّ، بقولها: (أن التحدي وإن كان كبيرًا إلّا أن الشعب العراقيّ الذي عرف عنه الشجاعة والإقدام وتحمّل المسؤوليّة الوطنيّة والشرعيّة في الظروف الصعبة أكبر من هذه التحديات والمخاطر)، وبذلك فقد ذكرت في خطابها خصائص متعددة للشعب العراقيّ التي تمثّلت بكونه شعب شجاع وله القدرة على تحمل المسؤولية في كلّ الظروف الصعبة، الأمر الذي كان له تأثير كبير في نفوس المتلقين، ودعاهم إلى الاستجابة السريعة، وبهذا فقد تحققت الوظيفة التواصليّة التي ينشدها منتج الخطاب، واستعمال هذه الآليّة خطوة مهمّة في تحقيق التفاعل مع الخطاب، اضافة إلى تعزيز الثقة بالمتلقي، وفي الوقت نفسه هو مدح للشعب العراقيّ من غير أن تفرق بين طائفة أو دين بل كان خطابها عامًا، وهذا ما جعل الخطاب يحقق هدفه ويكسب ودَّ المتلقين وتقريب الصلات بين أبناء الوطن.

وقد ركّزت المرجعيّة الدينية وهي تتضامن مع المتلقي (الشعب العراقيّ) على استعمال آلية المكاشفة هذه الآليّة التي تُعدّ مؤشرًا بارزًا على التقارب والتضامن مع المتلقي، إذ نجد في الغالب أنّ المتلقي يرغب في كثير من الأحيان هذا الأسلوب من الخطاب، خصوصًا عندما يشعر أنه بحاجة إلى التقرّب من المرسل وإفشاء الأشياء الخاصّة، والمكاشفة بوصفها آليّة تعتمد بشكل

مباشر على المصارحة والافصاح(الشهري، 2004م، 302)؛ ولذا فقد استثمرت المرجعيّة هذه الآليّة في خطابها للتضامن مع الشعب العراقيّ إذ جاء في خطابها (إنّ العراق وشعبه يواجه تحديًّا كبيرًا وخطرًا عظيمًا وإنّ الارهابيّين لا يهدفون إلى السيطرة على بعض المحافظات كنينوى وصلاح الدين فقط بل صرحوا بأنّهم يستهدفون جميع المحافظات ولا سيما بغداد وكربلاء المقدّسة والنجف الأشرف ، فهم يستهدفون كل العراقيّين وفي جميع مناطقهم، ومن هنا فإنّ مسؤوليّة التصدّي لهم ومقاتلتهم هي مسؤوليّة الجميع ولا يختصّ بطائفةٍ دون أخرى أو بطرفٍ دون آخر)، وبهذه المصارحة التي كشفت عنها المرجعيّة، قد تحقّق التأثير الأقوى في الشعب العراقيّ، ونجحت في خلق التواصل معهم، وبذلك نجد أن المرجعيّة قد كشفت للمتلقي المتمثل بالشعب العراقيّ بشكل عامّ حجم الخطر المحيط بالعراق بكلّ ما فيه من قوميّات وطوائف؛ بهدف كشف الواقع الذي يمثّل خطرًا على الجميع ، وكان الهدف من هذا الاستعمال أن يكون الشعب على أتمّ الاستعداد والجهوزية لهذا الخطر، على أن المرجعيّة أرادت من خلال التصريحات التي وضّحتها للشعب العراقيّ أن تحقّق تضامنًا عبر القيمة الاخباريّة التي جاءت في سياق الخطاب.

واستمرت المرجعيّة بمكاشفة الشعب العراقيّ بحجم المخاطر التي تحيط به، والتي دعته إلى مكاشفة أخرى وهي بمثابة الجزء الثاني للمكاشفة الأولى التي جاء فيها (إنّ طبيعة المخاطر المحدقة بالعراق وشعبه في الوقت الحاضر تقتضي الدفاع عن هذا الوطن وأهله وأعراض مواطنيه وهذا الدفاع واجب على المواطنين بالوجوب الكفائي)، إذ بيّنت المرجعيّة أنّ طبيعة المخاطر التي تحيط بالعراق كبيرة الأمر الذي يدعو الى ضرورة الدفاع عن هذا الوطن، والتصدي لأعدائه، وهذا الاستعمال لآليّة المكاشفة أفضى إلى غاية كبرى أرادت من خلالها المرجعيّة تحقيق تواصل تامّ بينها وبين الشعب العراقيّ؛ حتى تتضامن معه، وتعلن عن أنّ الدفاع عن الوطن (واجب على المواطنين بالوجوب الكفائيّ)؛ وهو الهدف الأساس الذي وضع الخطاب من أجل بيانه.

وصفوة القول إنّ خطاب المرجعيّة الدينيّة الكفائيّ خطاب اعتمد في بعده التواصليّ على استراتيجيّة التوجيه والتضامن في الآن نفسه، فهو يوجّه الجمهور إلى تحقيق قوّة قامعة للإرهاب

وقاشعة له، ويتضامن مع أفكارهم ومبادئهم ليكون جزءا لا يتجزّأ من هذه القوّة المرتقبة؛ التي تدفع المخاطر المحدقة بالعراق وشعبه، وقد تحقّق هدف الخطاب الذي رسمه منتجه، وهو النصر وتحرير العراق من الظلام.

المطلب الثاني: خطاب الدفاع الكفائيّ واستثمارُ السرديّاتِ الكُبرى

ينشغلُ الخطابُ المرجعيّ (الكفائيّ) ـ بوصفِهِ سلطةً تأخذُ على عاتقِها إنقاذَ العراقِ من الضياعِ ـ بالانطلاقِ من سرديّةٍ كُبرى* مبنيّةٍ على أسّ من العاداتِ، والتقاليدِ، والأعرافِ، والمعتقداتِ الراسخةِ القارّةِ في أذهانِ أفرادِ المجتمعِ، وهي سرديّةُ الوحدةِ العربيّةِ الإسلاميّةِ، وما يتّصلُ بها؛ إذ نجدُ في مفتتحِ الخطبةِ جملًا صريحةً تشيرُ بدقّةٍ ملحوظةٍ إلى محكيّاتٍ مترسّخةٍ في أذهانِ الجمهورِ بخاصّةٍ، والمجتمعِ العراقيّ بعامّةٍ، من نحوِ: "إنَّ العراقَ وشعبَهُ يواجهُ تحدّيًا كبيرًا وخطرًا عظيمًا"، و"الدفاع عن حرماتِ العراقِ ووحدتِهِ"، و"بالعراقِ وشعبِهِ"، و"حفظ العراقِ وشعبِهِ ومقدّساتِهِ"، و"حفظ بلدِنا ومقدّساتِنا"، و"هذا البلد المظلوم وشعبه الجريح"، و"الدفاع عن بلدِهِ وأهلِهِ وأعراضِهم"، و"هذا البلد ومواطنيه"، و"دفاعًا عن بلدِهم وشعبِهم ومقدّساتِهم".

فهذه المحكيّاتُ لم تكنْ مجرّدَ تذكيرٍ أو لمحةً عابرةً، بل هي موزّعةٌ بصورةٍ منتظمةٍ على البنيةِ اللغويّةِ للخطابِ، تشكّل عملًا خطابيًّا متكاملًا ينشدُ الإقناعَ والتأثيرَ، وينشغلُ بتحفيزِ حاسّةِ الوطنيّةِ، والإحساسِ بالآخرِ؛ ذلك أنَّها تعملُ على إحياءِ الوعي الراسخِ في نفوسِ المخاطبينَ وأفكارِهم، وإشعارِهم بضرورةِ التنبّهِ على أنَّ التحدّي غيرُ مقصورٍ على أحدٍ من دونِ غيرِهِ، بل هو تحدٍّ للعراقِ والعراقيّين جميعًا، وهي بعد تتنقّلُ بهم إلى السرديّاتِ البطوليّةِ التي تعدّتْ حدودَ الزمانِ والمكانِ، وهي سرديّاتٌ تتساوقُ مع فكرةِ التحديّاتِ التي جابهتْ العربَ في أيّامِهم، وتتّسمُ بواسمٍ كلّيّ قوامُهُ وحدةُ العراقِ.

ولمّا كانتْ "فكرةُ السردِ الجامعِ الشاملِ هي فكرةٌ مستحيلةٌ إنشائيًّا"(بول ريكو، (2009م)، 648)، ولا سيّما في الخطابِ (السياسيّ ـ الدينيّ)؛ لأنَّ "كلَّ سردٍ يحوي بالضرورةِ بعدًا انتقائيًّا"

* السرديّات الكبرى عبارة عن "محكيّاتٍ يتمّ سردها وترديدها وتنويعها، وصيغٍ، ونصوصٍ، ومجموعاتٍ من الخطاباتِ التي أضيفتْ عليها بعضَ الطقوسِ بحيث يتمّ سردُها حسبَ ظروفٍ جدّ محدّدة". (فوكو،2007 11).

"(بول ريكو، (2009م)، 648)؛ فقد عمدَ الخطابُ (الكفائيّ) إلى وضعِ مفتاحٍ لهذه السرديّاتِ، وهو قانونُ التحدّي الذي يحكمُها، وينطلقُ لتجسيدِ حكايةٍ مستقبليّةٍ تقوم على التحدّي الذي يواجه العراق، وتأتي أُكُلَها قولًا وفعلًا.

على أنَّ سلطةَ الخطابِ في هذه الجزئيّةِ لا تعملُ على صناعةِ محكيّاتٍ وهميّةٍ، ولا تنطلقُ من فراغٍ، بل تستثمرُ ما هو موجودٌ بالفعلِ في ذاكرةِ المخاطبين، وتنطلقُ منه لتوليدِ إقناعًا على نحوٍ أتمّ، وهذا يعني أنَّ مفهومَ السرديّاتِ الكُبرى في الخطابِ المرجعيّ يستندُ إلى الواقعِ، أو إلى ما يتصوّرُهُ الفردُ تّجاهَ الواقعِ الذي يعيشُهُ.

ونرى أنَّ الخطابَ المستندَ إلى سرديّةٍ واقعيّةٍ كُبرى لا يمكنُ بأيّةٍ حالٍ من الأحوالِ معارضتُه، أو التشكيكُ به؛ لأنَّه يعملُ على (تأصيلٍ وتجديدٍ وتجميعٍ) لما يقرُّ في أذهانِ السامعينَ، ويسعى إلى إعادةِ صياغتِهِ صياغةً فنيّةً قادرةً على تحقيقِ الإقناعِ.

المطلب الثالث: خطاب الدفاع الكفائيّ ومعالجة الطائفيّة

لعلّ من البداهةِ أن نقولَ إنَّ الخطابَ المرجعيّ مواكبٌ للأحداثِ السياسيّةِ والاجتماعيّةِ والاقتصاديّةِ التي يمرُّ بها البلدُ، وتمرُّ بها البلدانُ الأخرى؛ لأنَّه يأتي بمنزلةِ الدواءِ المعالجِ لما يصيبُ المجتمعَ من آفاتٍ تفتكُ به؛ فإذا كانَ ثمَّ خطرٌ سياسيّ؛ فالخطابُ لا يتغاضى عنه، ولا يتوارى خلفَ أمورٍ أخرى لا علاقةَ لها به، وكذلك الحال إذا كانَ البلدُ معرّضًا لخطرٍ اجتماعيّ أو اقتصاديّ؛ ذلك أنَّ "الخطابة السياسيّة نشاطٌ يتأثّرُ بشدّةٍ بالحياةِ السياسيّةِ والاجتماعيّةِ للوطن، فحينَ تكونُ الحياةُ عفيّةً وثريّةً تكونُ الخطبُ السياسيّةُ فوّارةً وحيّةً، أمّا حينَ يسودُ الركودُ فإنَّ الخطابةَ السياسيّةَ تدخلُ بدورِها طورَ الجمودِ" (عبد اللطيف، (2013م)، 96).

وإذا أردْنا أن نمسكَ الأمرَ من أوّلِهِ، ونحن نشتغلُ على تبيانِ مواكبةِ الخطابِ المرجعيّ للواقعِ؛ فنقطةُ البدءِ عندَنا مشروعُ التعويلِ على (الطائفيّة) الذي شاركتْ به كثيرٌ من المؤسّساتِ الدَوليّةِ على ما يشيعُ في الإعلامِ العربيّ، وهو تمهيدٌ منظّمٌ لدخولِ العصاباتِ الإجراميّةِ إلى العراقِ، ولمّا كانَ تقسيمُ العراقِ إلى طوائفَ (عرقيّة وقوميّة ودينيّة) مقدّمةً لدخولِ العصاباتِ الإجراميّة، فقد اشتغلَ الخطابُ المرجعيّ على معالجةِ آفةِ الطائفيّةِ، والدعوةِ إلى الوحدةِ، ونبذِ

الخلافاتِ والاختلافاتِ، اشتغالًا يمثّلُ مقدِّمةً لإعلانِ (فتوى الدفاع الكفائيّ)؛ انطلاقًا من قناعةٍ مفادها أنَّ الخطابَ المرجعيّ يحسنُ أنْ يقدّمَ شعاراتٍ أعلى وأقوى وأحسن ممّا يقدّمُهُ دعاةُ الطائفيّة؛ لغرضِ القضاءِ على أفكارِهم ووأدِ حركاتهم.

وخيرُ دليلٍ على ذلك أنّ الخطاب جاءَ مرتّبًا ومسلسلًا على وفقِ ترتيبِ الأحداثِ، وتسلسلِها؛ فيبدأُ أوّلَ ما يبدأُ بالاشتغالِ على نسفِ الحدودِ الفاصلةِ بينَ أطيافِ الشعبِ العراقيّ، والتعاملِ بعنوانٍ أكثرِ صدقًا ووضوحًا، وهو عنوانُ العراق؛ الاسمُ الجامعُ لكلِّ الأطيافِ، على اختلافِ مشاربِهم وميولِهم، فلم يكنْ الخطابُ المرجعيّ فئويًّا يقصدُ فئةً من دونِ أخرى، أو شريحةً من دونِ غيرِها، بل هو خطابٌ (جامعٌ مانعٌ)؛ إذ يجمعُ العراقيّين تحتَ مسمّى (العراق)، ويمنعُ اختلاطَهم بغيرِهم، كما يمنعُ التعاملَ معهم بمفاهيم طائفيّة؛ وهذا ما يلاحظُهُ القارئُ بجلاءٍ في خطابِ الدفاعِ (الكفائيّ)؛ إذ تكرّرَ به ذكرُ العراقِ والعراقيّين وشعبَ العراقِ وبلدَ العراقِ أربعَ عشرةَ مرّةً، ولم نلمحْ فيه ما يشيرُ إلى طائفةٍ من دونِ غيرِها، حتّى أنَّ استعمالَ لفظِ المقدّسِ والمقدّساتِ (مقدّساتنا، المقدّسات، مقدّساته، مقدّساتهم) بهذا التنويعِ في الإسنادِ هو استعمالٌ مشتركٌ؛ لأنَّ لكلِّ فئةٍ مقدّساتِها، والعصاباتُ الإجراميّةُ تشتغلُ على تدنيسِ المقدّسِ، وبثِّ التفرقةِ بين الطوائف، التي من شأنِها أن تفسحَ لها المجالَ لتحقيقِ غايتها، ولكنّ الخطابَ السياسيّ المرجعيّ كانَ واعيًا بقدرِ المسؤوليّة، فقدّمَ حلّا لكلِّ الخلافاتِ، وبصورةٍ محسوبةٍ حسابًا دقيقًا؛ إذ ما من أحدٍ مهما اختلفَ مشربُهُ مواطنًا كانَ أم مقاتلًا أم سياسيًّا إلّا كانَ ذا قناعةٍ بعظمِ مسؤوليّتِه تّجاهَ ما يمرُّ به البلدُ، وهذه غايةٌ ما بعدَها غاية، وهي أن يشعرَ الجميعُ بأنَّهم مسؤولونَ عن صناعةِ النصرِ.

المطلب الرابع: خطاب الدفاع الكفائيّ وإيطوسُ المرجعيّةِ*

يرى (ميشيل فوكو Michel Foucault) ـ معارضًا مقولةَ (موت المؤلّف)* التي تبّنتْها البنيويّةُ وصفّقتْ لها نظريّة التلقّي ـ أنَّ هويّةَ الخطيبِ من أبرزِ الإجراءاتِ الداخليّةِ للخطابِ

* (الإيطوس) مصطلح أرسطيّ قديم يبنى مفهومه على إرجاع نجاعة الخطاب وقوّته التأثيريّة إلى سلطة الخطيب ومنزلته لدى الجمهور. (عبيد، 2013م، 103)

التي تتعرّضُ بشكلٍ كبيرٍ إلى النقدِ والمنعِ والرفضِ؛ لأنَّ أيَّ خطابٍ يستمدُّ قيمتَهُ العلميّةَ والاجتماعيّةَ من صاحبِهِ نفسِهِ (فوكو،2007 15)؛ لذلكَ نلاحظُ تكرارَ كثيرٍ من الأسئلةِ على لسانِ المعارضينَ من نحوِ: من يحقُّ له إنتاجُ الخطابِ؟ ومن أينَ يكتسبُ الخطابُ شرعيّتَه؟ وهل يبقى تصنيفُ بعضُ الفلاسفةِ للأفعالِ الخطابيّةِ إلى أفعالٍ ضعيفةٍ، وأفعالٍ قويّةٍ فاعلًا إذا تغيّرتْ هويّةُ الخطيبِ؟ وهل يختلفُ الخطابُ إذا أثبتنا مضمونَهُ وانتزعناه من صاحبِهِ؟ وأخيرًا: هل لهويّةِ صانعِ الخطابِ أثرٌ في تحديدِ قوّةِ الفعلِ الخطابيّ؟

وقد صرّحَ الدكتورُ سامي كليب بعدمِ وجودِ إجاباتٍ ثابتةٍ ومقنعةٍ لنحوِ هذه الأسئلةِ، فهي على رأيِهِ لا تزالُ مثارَ جدلِ الفلاسفةِ والباحثينَ، وقد ترجعُ بعضُ مساردِ الإجابةِ عنها إلى معايير: الثقةِ بالنفسِ، ومنصبِ الخطيبِ، وقدرتِهِ على الإقناعِ (كليب، 2017م، 173).

ولكنّنا بمتابعةِ الخطابِ المرجعيّ نرى أنَّ المعيارَ الأهمَّ في تحديدِ الإجابةِ عن هذه الأسئلةِ مجتمعةً يظهرُ من خلالِ النظرِ في مدياتِ استجابةِ المجتمعِ إلى خطابِهِ، وتحقّقِ الخطابِ بوصفِهِ عملًا إنجازيًّا غايتُهُ التأثيرُ، والتغييرُ، وقلبُ الموازين؛ فإذا كانَ الخطابُ عملٌ نصنعُ بوساطتِهِ ما نريدُ، فنغيّرُ، ونحوّلُ، ونقاومُ، ونخضعُ، وندافعُ، وننتصرُ؛ فالسؤالُ الذي تكونُ إجابتُهُ حاسمةً في توضيحِ الأسئلةِ السابقةِ هو: هل كانَ لخطابِ الدفاعِ (الكفائيّ) أثرٌ في تغييرِ المجتمعِ؟

إنّنا على قدرِ ضعفِ نظرِنا نرى أنَّ خطابَ الدفاع (الكفائيّ) عملٌ قلبَ الموازين، وأبطلَ النتائجَ المرتقبةَ من أفعالِ القوى العالميّةِ، وأحدثَ أثرًا لا يكادُ ينكرُهُ منكرٌ على وجهِ الأرضِ؛ إذ سرعان ما اندفعَ العراقيّون، وليس الجمهورُ فحسبَ، إلى تبنّي الخطابِ، والسيرِ به إلى التطبيقِ الفعليّ المثاليّ، وعلى ذلكَ نستطيعُ أن نقولَ إنَّ معيارَ قوّةِ الفعلِ الخطابيّ يتحدّدُ بشخصِ الخطيبِ، ونوعِ المخاطبينَ، ومقامِ الخطابِ، وهذا لا يعني النظرَ إلى كلِّ طرفٍ منفردًا عن الآخرِ، بل النظرَ إلى هذه الثلاثيّةِ نظرةً واحدةً غيرَ مجزّأةٍ، أحدُها يفضي إلى الآخرِ في تحقيقِ قوّةِ الفعلِ الخطابيّ، وهذا ما ظهرَ في خطابِ الدفاعِ (الكفائيّ)، فالخطيبُ ينقلُ على لسانِ

*** هذه مقولة نقديّة للمفكّر الفرنسيّ (رولان بارت Roland Barthes) استوت مصطلحا لدى النقّاد الغربيّين والعرب؛ فوظّفوها للدلالة على أنّ سلطة المؤلّف تنتهي لحظة إنتاج خطابه؛ ليحلّ القارئ محلّه، ويشتغل على إنتاج المعاني التي يرتضيها (الخليل، 2020، 9).**

المرجعِ سماحةِ السيّدِ عليّ السيستانيّ، والمقامُ مقامُ تحدٍّ كبيرٍ، وخطرٍ يلوحُ في الآفاقِ، والمخاطبونَ عراقيّونَ تجمعُهم (العراقيّة)، وهذه الثلاثيّةُ تضافرتْ؛ فأنتجتْ حشدًا شعبيًّا التَهَمَ ما ألقتْ القوى العالميّةُ في العراقِ، وأنتجَ عراقًا حرًّا منتصرًا.

وقد بدا واضحًا أنَّ نجاعةَ الخطابِ المرجعيّ مستندةٌ إلى اعترافِ المخاطبينَ بشرعيّةِ الناطقِ به، ومكانتِهِ عندَهم، وهذا ما أوضحَهُ (بورديو Biurdieu)؛ إذ ذكر أنّ "الرمزيّةَ للكلمات لا يكونُ لها أثرٌ إلّا إذا كانَ هناك اعترافٌ من متلقّي تلكَ الكلماتِ بأنَّ قائلَها له تفويضٌ كي يقولَها"(عبيد، 2013م، 114-115)، فالعملُ الخطابيّ لا يحقّقُ قوّتَهَ الإنجازيّةَ، والتأثيريّةَ إلّا إذا نظرَنا إلى أطرافِهِ على أنَّهم فواعل اجتماعيّة، لهم وزنٌ في البابِ الذي يشتغلونَ عليه، وهذا ما يجعلُ للخطابِ سلطةً تستندُ إلى الخطيبِ ومنزلتِهِ عندَ المخاطَبينَ، والظروفِ المحيطةِ به.

على أنَّ إيطوسَ الخطيبِ قد يكونُ إيطوسُ جوارٍ، أو إيطوسُ بُعدٍ (عبيد، 2013م، 113)، وكلا النوعينِ ينطلقانِ من وصفٍ دقيقٍ لمجتمعِ الخطاب، أمّا إيطوسُ المرجعيّة، فنستطيعُ تصنيفَهُ ضمنَ النوعِ الأوّلِ؛ لسببٍ بسيطٍ، وهو أنَّ ضميرَ الخطيبِ يشيرُ إلى أنَّهُ جزءٌ لا يتجزّأُ عن مجتمعِهِ، فهو يخاطبُ الجمهورَ على أنَّهُ واحدٌ منهم، يقاسي ما يقاسونَ، ويتحمّلُ ما يتحمّلونَ، من خلالِ استعمالِ ضميرِ الجماعةِ أو ما يطلق عليه مصطلح (الكلمات الكاملة) (جون كوهن، 1986م،43) في نحو: (بلدنا، مقدّساتنا)، فضلًا عن الإيطوس السابقِ لزمنِ الخطابِ، المتضمّنِ فيه، وهو إيطوسِ (المرجعيّة الدينيّة) الذي يمثّلُ صورةَ صاحبِ الخطابِ، ومنزلتِهِ في نفوسِ المخاطبينَ قبلَ التفوّهِ بالخطابِ، وبعدَه.

وهذا يعني أنَّنا أمامَ نوعينَ مهمّينَ من الإيطوس في خطبةِ الدفاعِ (الكفائيّ)، الأوّلُ: سابقٌ للخطابِ متجّذر في المجتمعِ، يتمثّلُ في صورةِ المرجعيّةِ الدينيّةِ العالقةِ في الأذهانِ، والثاني: لاحقٌ للخطابِ، وموزّعٌ في متنِهِ، ويتّضحُ في كونِ المرجعيّة الدينيّة تشاركُ المخاطبينَ في عِظَمِ المسؤوليّةِ التي تقعُ على عاتقِهم، فهي منهم وإليهم، والنوعانِ كلاهما يعملان على ترسيخِ أثرِ الخطيبِ، وسلطتِهِ على المخاطبينَ في تحقيقِ الإقناع.

المطلب الخامس: خطابُ الدفاعِ الكفائيّ في معيارِ (علينا أن نقول وعليكم أن تتأوّلوا)*

يقرّرُ الباحثونَ أنَّ تحليلَ الخطابِ، والنظرَ فيه يتمّ عبرَ ملءِ فراغاتِهِ, وأنَّ ملءَ الفراغاتِ لا يكونُ بصورةٍ عشوائيّةٍ, بل يعتمدُ على ذخيرةِ الخطابِ, وذخيرةُ الخطابِ هذه تمثّلُ السُلسُلةَ التي تربطُهُ بالخطاباتِ السابقةِ التي تؤسّسُ فضاءَهُ وتمنحُهُ وجودَهُ.

ولكنّ، هل يعني هذا انفتاح الخطاب على التأويلِ، وبطريقةٍ تقومُ على الاعتقادِ بأنّه "لا وجودَ لحقائقَ بل لتأويلاتٍ فقط" (سونتاغ، 2010م، 18)، وترسّخ القول بأنّه ليس هناك معنًى حقيقيّ لخطابٍ ما؛ لأنَّ الخطاباتِ تمثّلُ "قوالب فارغة يمكن ملؤها بمضامين مختلفة طبقا لمطالب العصر" (حرب، 1995م،182)، بناء على رؤية تقطع "الصلة مع المؤلّف ومراده ومع المعنى واحتمالاته"(حرب، 1995م،22).

إنَّنا على قدرِ ضعفِ نظرِنا نرى أنَّ قوّة الفعل الخطابيّ تستندُ إلى عمليّةِ تفاعلٍ واعيةٍ، بين (الخطيبِ، والمخاطبين، والخطاب) في ضوء السياق المقاميّ، وهي بعد تنطلقُ من هذه العناصر وتنتهي إليها؛ وهذا ما يدعونا إلى القول بأنَّ انفتاحَ الخطاب على التأويلات لا يعني تسلّطَ المخاطبين عليه، وتأويله على وفقِ ميولهم ورغباتهم، وإن تطلّب ذلك مغادرة معانيه المتبادرة إلى الأذهان، والغوص في التأويلات المفرطة.

ونريد أن نبيّن أنّ عمليّة ملء الفراغات تمثّلُ محاولةَ تفكيكِ قوى التركيب المحمّلةِ بالمعنى، وتفسيرِ بنيتِهِ الشكليّةِ، بمعنى أنَّ المخاطبينَ يفسّرون الخطاب منطلقينَ من بنيتِهِ الشكليّةِ، وعلاقتِها بالمقام، وليسَ لهم أن يحمّلوا الخطابَ ما لا يقصدُهُ، وما لا طاقةَ له عليه، بل ينبغي الابتداء منه والانتهاء إليه؛ ذلك أنّ بنية الخطاب اللغويّة تتّصلُ ببنيةِ الموضوع، ولا يمكن الفصل بينهما إلّا تعسّفا.

*** المقولة للفرزدق يشير بها إلى أثر المتلقّي في تأويل شعره، وهي مقولة لاذعة تمثّل عِظم التأويل الذي كان ينوء به دارس العربيّة إزاء النصوص الأدبيّة، وقد استعرناها منه إشارة إلى أثر التأويل في فهم الخطاب المرجعيّ، فما من خطاب يصدر عن المرجعيّة الدينيّة إلّا وصدرت معه مئات القراءات التأويليّة والتقويليّة. (الانباري ت577هـ، (1985م)، 28).**

ولمّا كانَ الخطابُ في مقامِ التحدّي، والخطيب يمثّلُ شخصيّةَ المرجعيّةِ الدينيّةِ، والمخاطبون عراقيّين لفظًا ومعنًى، فليس بالخطيب حاجةٌ إلى المراوغة في توجيهِ المخاطبينَ، وليس بهم حاجةٌ إلى التعسّف في التأويلِ.

المطلب السادس: إنجازيّةُ خطابِ الدفاعِ الكفائيّ

أصبحَ واضحًا في تصوّرِنا أنَّ خطابَ الدفاعِ الكفائيّ يؤلّفُ فعلًا خطابيًّا قويًّا يستمدُّ قوّتَه من أطرافِهِ فضلًا عن محيطِهِ الاجتماعيّ، وهذا ما يسبغُ عليه صفتي الإنجازِ، وقوّةِ التأثيرِ؛ إذ إنّ الخطابَ بصيغتِهِ الإثباتيّةِ لا يقدّمُ وصفًا أو تقريرًا محضًا للواقعِ، مجرّدًا عن الإنشاءِ، بل هو مُكَوّنٌ من مجموعةٍ من الأعمالِ الخطابيّةِ التي تمثّلُ قوّةً خطابيّةً واحدةً قادرةً على الفعلِ والتأثيرِ، وهي ما أطلقَ عليها التداوليّون (القوّة المقصودة بالقول أو العمل اللاقولي أو القولفعليّة) (العتّابيّ، 2022م، 66)، وبناءً على هذا المُعطى؛ فمن الطبيعيّ أن يؤثّر الخطابُ المرجعيّ في "مواقفِ الإنسانِ وسلوكِهِ من دونِ إكراهٍ أو قسرٍ" (باطاهر، 2006م،21)؛ فيقدّم عملًا إنجازيًّا مشهودًا، ولكي لا يكونُ هذا الأمرُ أسيرًا للتنظير، لنا أنْ نوجزَ أبرزَ ما أنجزَهُ هذا الخطاب بالآتي:

1- وضعُ المعالجات: جاءَ الخطابُ مساوقًا لما يعانيه المجتمعُ من انتشارِ فكرةِ الطائفيّة، والخوفِ من المصيرِ، والاختلافِ والتناحرِ السياسيّ؛ فعملَ على رفعِ شعارِ الوحدةِ عبرَ سرديّاتٍ قارّةٍ في اعتقادِ المخاطبينَ، ونهى المواطنينَ عن "أنْ يدبَّ الخوفُ والاحباطُ في نفسِ أيّ واحدٍ منهم"، ودعا السياسيّين "إلى تركِ الاختلافِ والتناحرِ، ولاسيّما خلال هذه الفترة العصيبة وحثّهم على توحيدِ مواقفهم ودعمهم وإسنادهم للقوات المسلّحة؛ ليكون ذلك قوّة إضافيّة لأبناء الجيش العراقيّ في الصمود والثبات"، وكلّ ذلك جاء مقدّمة لإعلان تكليف الدفاع الكفائيّ؛ إذ لم يأتِ هذا التكليف بصورةٍ مجرّدةٍ عن المقدّمات، بل قُوبلتْ شعاراتُ الآفاتِ الثلاثة بما يعالجُها من شعاراتٍ أكثرِ صدقًا، وأقوى دلالة، ثمّ جاءَ حكمُ الدفاعِ (الكفائيّ) مستندًا إلى (أرضٍ خصبة)؛ فأزهرَ، وأثمرَ، وسرعان ما أتى أُكُله بالنصرِ.

2- دقّةُ اختيارِ الألفاظِ المرتبطةِ بمفهومِ التحدّي: لم يردْ في خطابِ الدفاع (الكفائيّ) مصطلحُ الجهاد، بل استعملَ الخطيبُ ألفاظَ (التصدّي، والدفاع، والصمود)؛ إشارةً منه إلى مفهومِ

التعدّي السابق؛ فإذا كان الفقهاء قد قسّموا الجهاد إلى جهاد ابتدائيّ، وآخر دفاعيّ (الشاميّ، 2008م، 30–33)، فإنّ الخطاب المرجعيّ مال إلى استعمال مصطلح الدفاع الكفائيّ؛ لكي لا يتّصف بالهجوميّة أو العداونيّة، أو الابتداء بالحرب، بمعنى أنَّنا ندافعُ عن أنفسِنا، وأرضِنا، ومقدّساتِنا، ولا شأنَ لنا غير ذلك؛ فلم نُرِدْ أنْ نأخذَ غيرَ ما أخذتْهُ الطائفيّةُ منّا، وفي ذلكَ دلالةٌ على شرعيّةِ الدفاعِ (الكفائيّ) على المقاييس كلِّها، على أنّ الخطيب أعطى شرعيّة للمخاطَبين أن يكونوا مخاطِبين لغيرهم، بقوله: "المطلوب أن يحثّ الأبُ ابنَه، والأمّ ابنَها، والزوجةُ زوجَها على الصمود والثبات"، وبهذا جعل إنشاء (الدفاع والصمود والثبات) شاملا للعراقيّين جميعهم.

3- الترغيبُ والتكريمُ: تضمّنَ خطابُ الدفاع (الكفائيّ) تصريحًا دقيقًا بما يستحقُّه المقاتلونَ الذين ينساقون إلى الدفاعِ عن بلدِهم، وقد كانَ ذلكَ على محورين، الأوّل: دنيويّ، وهو تكريمُهم "تكريمًا خاصًّا لينالوا استحقاقهم من الثناءِ والشكرِ، وليكون حافزًا لهم ولغيرهم"، والثاني: أخرويّ، يتمثّلُ بتبيانِ جزاءِ من يُضحّي بنفسِهِ في سبيل الدفاع "عن بلدِهِ، وأهلِهِ، وأعراضِهم فإنَّه يكونُ شهيدًا إن شاء الله تعالى".

4- إظهارُ قيمةِ الجيشِ العراقيّ: أشارَ خطابُ الدفاعِ (الكفائيّ) إلى التضحياتِ، والجهودِ المبذولةِ من أفرادِ الجيشِ العراقيّ، إذ بيّنَ "أنَّ الكثيرَ من الضبّاطِ، والجنودِ قد أبلوا بلاءً حسنًا في الدفاعِ، والصمودِ، وتقديمِ التضحيات"؛ إشعارًا بأنَّ هذا الخطابَ لا ينبني على إلغاءِ القوّاتِ المسلّحةِ التي تأتمرُ بأمرِ الدولةِ العراقيّةِ، وتأكيدًا لقيمة التضحيات التي يقدّمُها الجيشُ العراقيّ، وإشارةً صادقةً إلى أنَّ (قوّات المتطوّعين) التي أنجزَها الخطابُ المرجعيّ ما هي إلّا تعضيدٌ للقوّاتِ المسلّحةِ، فهي تنخرط في صفوفها؛ لتتمكّنَ من إزالةِ مضاعفاتِ الطائفيّة والتفكّك السياسيّ.

5- الدعوةُ إلى الفضائلِ التربويّةِ: لم يَكُنْ خطابُ الدفاعِ (الكفائيّ) خطابًا سياسيًّا محضًا؛ إذ لم يَكُنْ منقطعًا عن الخطاباتِ الدينيّةِ الداعيةِ إلى الفضيلةِ والحكمةِ، فقد تضمّنَ الخطابُ دعوةً صريحةً إلى التحلّي بفضيلةِ الشجاعةِ، والصبرِ، والثباتِ.

6- قوّةُ خطابِ الدفاعِ الكفائيّ: أنجزَ الخطابُ المرجعيّ الكفائيّ (قوّةً) لا شبيهَ لها، تتحلّى بقيمٍ عليا من الفضائل، وتتّسمُ بسماتٍ دالّةٍ على قوّةِ الإيمانِ، وتنطلقُ من مبدأ التحدّي الرافضِ لكلِّ الرذالِ المبنيّةِ على التفكّكِ، والتناحرِ، والخوف.

الخاتمة

لقد أبرز البحث أبرز نتائج خطاب الدفاع الكفائيّ في المطلب السادس الذي عني بإنجازيّة الخطاب، ولنا هنا أن نذكر جملة النتائج التي توصّل إليها البحث نفسه، ويمكن أن نوجزها بما يأتي:

1- إنّ قوّة الخطاب ولا سيّما الخطاب الدينيّ تقوم على التكامل بين الصناعة اللسانيّة والتفويض الاجتماعيّ.

2- يقوم خطاب الدفاع الكفائيّ على ركيزتين أساسيتين تقودان إلى تحقيق الإقناع والتأثير، الأولى التوجيه المبني على الأوامر بإحقاق الحقّ، والنواهي عن الانسياق وراء مطالب الطائفيّة، والثانية التضامن، وهي أن يكون الخطيب متضامنا مع المخاطبين بوصفه واحدا منهم.

3- استثمر خطاب الدفاع الكفائيّ المخزون الثقافيّ والدينيّ بوصفه سرديّة كبرى بنيت عليه مطالب الخطاب السامية.

4- سار خطاب الدفاع الكفائيّ على ترتيب موفّق؛ إذ أدرك الخطيب أنّ مضامين الخطاب لا يمكن تحقيقها ما لم تعالج شعارات الطائفيّة والانقسام، فعمل على معالجة الداء، وإرساء قيم حبّ الوطن، ونبذ الفرقة، وإبعاد أيّ انحياز فئويّ من شأنه أن يقسّم المخاطبين؛ لأنّ التضامن أوّل أداة يوجّهها الخطيب في تحقيق أهدافه السامية.

5- جاء خطاب الدفاع الكفائيّ واضحا بيّنا يفهمه المخاطبون على اختلاف مراتبهم المعرفيّة؛ إذ اعتمد على الوضوح والمكاشفة والمباشرة، ولم يعمل على تضمين مطالبه على طريقة الألغاز التي تستعصي على التأويل.

المصادر والمراجع

- أبو البركات كمال الدين الأنباريّ ت577هـ، (1985م)، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: إبراهيم السامرائيّ، ط3، مكتبة المنار ـ عمّان.
- أحمد حسين حيال، (2020م)، الأبعاد التداوليّة في المقاصد الشافيّة للشاطبيّ ت790هـ: دار نيبور ـ العراق، ط2.
- ادريس مقبول، (2014)، الاستراتيجية التخاطبية في السنة النبوية، مجلة كلية العلوم الإسلامية، المغرب، مجلد8، العدد 15/ 2.
- آفاق جديدة في البحث اللّغويّ المعاصر: د. محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعيّة ــ مصر، ط1، 2002م.
- بن عيسى باطاهر، (2006م)، أساليب الإقناع في القرآن الكريم، ط1، دار الضياء للنشر والتوزيع ـ الأردن.
- بول ريكو، (2009م)، الذاكرة، التأريخ، النسيان، ترجمة: جورج زيناتي، ط1، دار الكتاب الجديد المتّحدة ـ بيروت.
- بيير بورديو، (2007م)، الرمز والسلطة، ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي، ط3، المغرب، الدار البيضاء.
- بيير بورديو، (2023م)، ما معنى أن نتكلّم– اقتصاد التبادلات اللغويّة، ترجمة: رشيد بازي، ط1، المغرب، الدار البيضاء.
- جون كوهن، (1986م) بنية اللغة الشعريّة، ترجمة: محمّد الوليّ، ومحمّد العمريّ، ط1، الدار البيضاء، المغرب.
- حاتم عبيد، (2013م)، في تحليل الخطاب، ط1، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع.
- سامي كليب، (2017م)، البراغماتيّة (القولفعليّة) في تحليل أفعال الخطاب السياسيّ، خطابا ترامب والملك سلمان نموذجا، ط1، دار الفارابيّ ـ بيروت.
- سمير الخليل، (2020م)، موت المؤلّف وتصدّعات النصّ، دراسات نقديّة وثقافيّة في الشعر والسرد، ط1، منشورات الاتّحاد العامّ للأدباء والكتّاب في العراق ـ بغداد.

- سوزان سونتاغ، (2010م)، ضدّ التأويل ومقالات أخرى، ترجمة: نهلة بيضون، المنظّمة العربيّة للترجمة ـ بيروت.
- شكري المبخوت، (2010م)، دائرة الأعمال اللغويّة: دار الكتاب الجديد المتّحدة ــ بيروت، ط1.
- عبد الهادي الشهري، (2004م)، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان، ط1.
- عقيل زيد الشاميّ، (2008م)، الجهاد في الإسلام ــ وجهة نظر أخرى، مركز ابن إدريس الحلّيّ للدراسات الفقهيّة، النجف الأشرف.
- عليّ حرب، (1995م)، الممنوع والممتنع ـ نقد الذات المفكّرة، ط1، الدار البيضاء ــ المغرب.
- عماد عبد اللطيف، (2013م) بلاغة الحريّة، معارك الخطاب السياسيّ في زمن الثورة، ط1، دار التنوير للطباعة والنشر ـ بيروت.
- مسعود صحراويّ، (2005م)، التداوليّة عند العلماء العرب، دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلاميّة في التراث اللسانيّ العربيّ: دار الطليعة ـ بيروت، ط1.
- مصطفى لطفي، (1976م)، اللغة العربية في اطارها الاجتماعي، معهد الانماء العربي، بيروت_ لبنان، ط1.
- ميشيل فوكو، (2007م) نظام الخطاب، ترجمة: د. محمّد سبيلا، ط1، دار التنوير للطباعة والنشر ـ بيروت.
- نصر حامد أبو زيد، (1994م)، نقد الخطاب الدينيّ، ط2، سينا للنشر ـ القاهرة.
- هاني كنهر العتّابيّ، (2022م)، تقويل المتكلّم في الدرس النحويّ، مقاربة تداوليّة، ط1، دار أكاديموس، بغداد.

Sources and References:

- Abu al-Barakat Kamal al-Din al-Anbari (d. 577 AH), (1985 CE), Nuzhat al-Alba' fi Tabaqat al-Udaba', edited by Ibrahim al-Samarrai, 3rd edition, Maktabat al-Manar, Amman.

• Ahmad Hussein Hayyal (2020 CE), Al-Ab'ad al-Tadawuliyya fi al-Maqasid al-Shafiyya lil-Shatibi (d. 790 AH): Dar Nipur, Iraq, 2nd edition.
• Idris Maqbul (2014), Al-Istratijiyya al-Takhatubiyya fi al-Sunna al-Nabawiyya, Journal of the Faculty of Islamic Sciences, Morocco, Volume 8, Issue 15/2.
• Afaq Jadida fi al-Bahth al-Lughawi al-Mu'asir: Dr. Mahmoud Ahmad Nahla, Dar al-Ma'rifa al-Jami'iyya, Egypt, 1st edition, 2002 CE.
• Bin Issa Batahir (2006 CE), Asalib al-Iqna' fi al-Qur'an al-Karim, 1st edition, Dar al-Diya' for Publishing and Distribution, Jordan.
• Paul Ricoeur, (2009), Memory, History, Forgetting, translated by George Zinati, 1st edition, Dar Al-Kitab Al-Jadeed Al-Muttahida, Beirut.
• Pierre Bourdieu, (2007), Symbol and Power, translated by Abdel Salam Benabdelali, 3rd edition, Casablanca, Morocco.
• Pierre Bourdieu, (2023), What Does It Mean to Speak? The Economics of Linguistic Exchanges, translated by Rachid Bazi, 1st edition, Casablanca, Morocco.
• John Cohen, (1986), The Structure of Poetic Language, translated by Mohamed El-Wali and Mohamed El-Omari, 1st edition, Casablanca, Morocco.
• Hatem Obeid, (2013), On Discourse Analysis, 1st edition, Dar Ward Al-Urduniyah for Publishing and Distribution.
• Sami Kleib, (2017), Pragmatism (The Actual) in the Analysis of Political Discourse Acts: The Speeches of Trump and King Salman as Examples, 1st edition, Dar Al-Farabi, Beirut. • Samir Al-Khalil, (2020), The Death of the Author and the Fractures of the Text: Critical and Cultural Studies in Poetry and Narrative, 1st ed., Publications of the General Union of Writers and Authors in Iraq, Baghdad.
• Susan Sontag, (2010), Against Interpretation and Other Essays, translated by Nahla Baydoun, Arab Organization for Translation, Beirut.
• Shukri Al-Mabkhout, (2010), The Circle of Linguistic Works: Dar Al-Kitab Al-Jadeed Al-Muttahida, Beirut, 1st ed.

• Abdul-Hadi Al-Shahri, (2004), Discourse Strategies: A Pragmatic Linguistic Approach, Dar Al-Kitab Al-Jadeed Al-Muttahida, Beirut, Lebanon, 1st ed.
• Aqeel Zaid Al-Shami, (2008), Jihad in Islam: Another Perspective, Ibn Idris Al-Hilli Center for Jurisprudential Studies, Najaf. • Ali Harb, (1995), The Forbidden and the Prohibited: A Critique of the Thinking Self, 1st ed., Casablanca, Morocco.
• Imad Abdel Latif, (2013), The Rhetoric of Freedom: Battles of Political Discourse in the Time of Revolution, 1st ed., Dar Al-Tanweer for Printing and Publishing, Beirut.
• Masoud Sahrawi, (2005), Pragmatics Among Arab Scholars: A Pragmatic Study of the Phenomenon of Speech Acts in the Arab Linguistic Heritage, Dar Al-Tali'a, Beirut, 1st ed.
• Mustafa Lotfi, (1976), The Arabic Language in its Social Context, Arab Development Institute, Beirut, Lebanon, 1st ed.
• Michel Foucault, (2007), The Order of Discourse, translated by Dr. Muhammad Sbeila, 1st ed., Dar Al-Tanweer for Printing and Publishing, Beirut.
• Nasr Hamid Abu Zayd, (1994), A Critique of Religious Discourse, 2nd ed., Sina Publishing, Cairo. • Hani Kanhar Al-Attabi, (2022 AD), The Speaker’s Statement in Grammatical Studies, A Pragmatic Approach, 1st Edition, Dar Akadimus, Baghdad.